مجلة الدراسات الفلسطينية، المجلد ١٢، العدد ٤٧ (صيف ٢٠٠١)، ص ١٥٣

كتب بالإنكليزية

بيوتات مدينية فلسطينية:

ذكريات محفورة في الحجر

Palestinian Urban Mansions: Memoirs Engraved in Stone
Diala Khasawneh
Ramallah and Jerusalem: Riwaq (Centre for Architectural Conservation) and The Institute of Jerusalem Studies, 2001. 157 pages.

قامت المؤلفة وفريق عملها بجهد واضح في جمع مادة الكتاب، كما يبدو جلياً من قراءة متأنية له. وأبدعت المصورة ميا غرندال في التقاط صور مميزة للبيوت بتفصيلها حيث تمكنت من ذلك. كما قام فراس رحّال برسم مساقط البيوت بدقة وبساطة. وقد أُخرج الكتاب بحلّة أنيقة، وتمت طباعته برعاية المنظمة السويدية الدولية للتعاون والتنمية Sida، وقدمت له سعاد العامري، المشرفة على تحرير السلسلة التوثيقية.

في المقدمة نعلم أن الكتاب جاء لسد نقس في الأبحاث والمنشورات التي توثق للتراث المعماري الفلسطيني. وبذلك يكون ما قام ويقوم به مركز حفظ التراث المعماري "رواق" من عمل دؤوب في هذا المضمار إنجازاً مشكوراً وفي غاية الأهمية.

وقع اختيار المؤلفة على سبعة عشر منزلاً من بيوتات المدن الفلسطينية الرئيسية، تغطي كامل الوطن الفلسطيني من صفد وعكا شمالاً إلى الخليل وغزة جنوباً،

ومن مدن الساحل: حيفا ويافا إلى مدن العمق: نابلس وأريحا، ومدن فلسطين المحتلة: الناصرة وجنين وقلقيلية، ومدن الضفة المحاصرة: رام الله وبيت لحم والقدس. وقد تم اختيار البيوت لما تتمتع به من طراز معماري مميز، بمعدل بيت من كل مدينة، لتكوّن معاً ما يشبه دليلاً سياحياً منوعاً للبيوت الحضرية الفلسطينية، وذاكرتها المهددة بالاندثار في ظل هجمة المشروع الصهيوني المستمرة.

الحقبة التاريخية التي تنتمي إليها البيوت هي النصف الأول من القرن الماضي، وبصورة أدق فترة الانتداب البريطاني في العشرينات والثلاثينات منه. إلاّ إن عدداً من البيوت يعود بناؤه إلى فترة الحكم العثماني في أواخر القرن التاسع عشر.

يخبرنا الكتاب الكثير عن المجتمع الفلسطيني في تلك الحقبة، والتي ترافقت مع نضال الشعب الفلسطيني في مقاومة الاستيطان الصهيوني. نتعرف على حقبة مهمة من تاريخ فلسطين الاجتماعي والسياسي، فلسطين الثلاثينات، من خلال بيوتاتها التي هي أقرب إلى قصور عائدة للطبقة البورجوازية. هذه الطبقة التي كان لها الدور الرائد في تثبيت الهوية الوطنية الفلسطينية عبر الأجيال. والكتاب يضم عدة أمثلة لذلك.

في القدس: بيت سعيد الحسيني كان مقراً للهيئة العربية العليا، وفيه اجتمع أقطاب فلسطين بالحاج أمين الحسيني تحضيراً لإضراب سنة ١٩٣٦. كذلك انطلقت منه شرارة حرب التحرير بقيادة عبد القادر الحسيني، بعد قرار تقسيم فلسطين في سنة ١٩٤٧. ويشكل البيت، الواقع في حي الشيخ جراح، جزءاً من مجمّع أصبح يعرف فيما بعد ببيت المشرق والجالية الأميركية ودار الطفل وغيرها. (ص ٩٧)

في رام الله: بيت آل خلف يعرفه كل من عايش الحياة السياسية في المدينة، إذ كان ملتقى للعمل التعبوي، وملاذاً لمناصري الثورة في سنة ١٩٣٦. وعاش فيه إبراهيم خلف، أحد أبطال تلك الثورة، إلى أن نفاه الإنكليز إلى العراق. (ص ١٤٧)

في أريحا: بيت آل العلمي، من عائلات المجتمع الفلسطيني العريقة. عاش فيه موسى العلمي الجد، أحد رجالات فلسطين في العهد العثماني، ومن بعده ابنه فيضي، عضو برلمان القدس في سنة ١٩١٤. كما عاش فيه في العشرينات موسى الابن: مناصر حقوق الفلاحين في التمسك بأراضيهم، ومؤسس جمعية المشروع الإنشائي العربي في سنة ١٩٤٦، وجمعيات خيرية أُخرى.

من الناحية الاجتماعية، يقدم الكتاب وصفاً مشوقاً لحياة العائلات التي قطنت هذه البيوت، وفيها حافظت على العادات والتقاليد التي تميزت بها مجتمعات المشرق العربي. ومن هذه التقاليد جمع شمل العائلة، الممتدة من الجدود إلى الأحفاد، في مقر واحد يمثله منزل العائلة بكل أجزائه ومتفرعاته؛ ومنها حسن الضيافة الذي تمثل في تخصيص غرف في المنزل لاستقبال الضيوف، وتحضير الطعام بصورة جماعية، حيث يجتمع شمل العائلة الكبيرة إلى المائدة؛ ومنها تقاليد الأعياد والاحتفالات والمناسبات. يحفل وصف الكتاب لهذه العادات بالقصص والحكايات المعبرة عن التماسك الاجتماعي للعائلات الفلسطينية. وهناك عدة أمثلة.

في نابلس: مدينة التجارة وصناعة الصابون و.. الكنافة! بيت الآغا طوقان، حيث عاش وترعرع إبراهيم طوقان وفدوى طوقان. كما نشأ فيه ابن العائلة المهندس جعفر طوقان، الذي عمل على ترميمه ويطمح إلى جعله متحفاً لتاريخ المدينة، كجزء من متحف وطني للذاكرة الفلسطينية. في أرجاء هذا البيت الرفيع الشأن الاجتماعي، المنمّق التفصيلات المعمارية والزخارف المرسومة، نتعرف إلى نبذة من حياة الشاعرة فدوى طوقان وذكريات طفولتها المعذبة. (ص ١٢٢)

في عكا: **بيت آل حوا**، حيث ولدت وعاشت ريموندا حوا الطويل، وفيه كانت جدتها تعزف على البيانو، وكان جدها آنذاك القنصل البريطاني الفخري! عمّها أُجبر على الرحيل في سنة ١٩٤٨، وترك وراءه مكتبته وصفحات من الشعر بخط يده. إلى

هذا البيت عادت ريموندا من رام الله في سنة ١٩٦٧ حين أصبح ذلك ممكناً.. حاولت الدخول.. قرعت الباب.. لا جواب.. تذكرت والدها ووالدتها اللذين ماتا هنا وحيدين.. على بعد كيلومترات منها.. لم تستطع تمالك نفسها.. بكت.. حضر بعض السياح.. فجأة ظهر رجل من الباب.. مد نحوها يداً تمسك بتذكرة دخول وطلب منها دفع عشر ليرات.. لقد تحول البيت إلى متحف للزائرين! (ص ٢٠)

لكل بيت قصة.. منها الحزينة ومنها المقلقة. بيوت لا تزال الذكريات محفورة في حجارتها، تعبق فصولها في أرجائها، وتنبعث من زواياها أصداء الأحداث الماضية.. بيوت عاشت قسوة النكبة والهجرة القسرية لسكانها.. منها ما تحول إلى مخزن تجاري (بيت قرمان في حيفا).. ومنها ما احتلته عائلة أورثوذكسية يهودية (بيت خوري في يافا).. ومنها ما هجره أهله وبات يستخدم مضافة (بيت الشوا في غزة).

من الناحية المعمارية، وهي تبدو الهدف الأول للكتاب، فإن الوصف التفصيلي الدقيق لكل بيت يكاد يغني عن زيارته. وإذ نلاحظ أن أغلبية البيوت الموثقة هي من الطراز المعروف بالبيت الشرق . المتوسطي، والمنتشر عدا فلسطين في كل من سورية ولبنان، فإن القارئ الأكاديمي يفتقد عرضاً لأنماط البيوت والتأثيرات المعمارية والمناخية التي ساهمت في تكوين هذا التراث المعماري.

في الكتاب نجد نمط البيت قليل الفتحات على الخارج، ذي النوافذ المطلة على الحوش الداخلي، والحيطان الكثيفة وفيها القوس والخزائن المبنية، والذي كان دوماً لا يخلو من نافورة الماء في وسطه؛ وهو النمط المتأثر بالمناخ الصحراوي.

كما نجد نمط البيت المكون من الدار أو الليوان في الوسط، تتفرع منه من كل جانب غرف الاستقبال أو الطعام أو النوم، والخدمات.. تحيط به الحديقة ذات الأشجار المثمرة والعريشة. وهذا النمط من البيت ذي النوافذ المنفتحة على الخارج.. والقناطر

الثلاثية منها أو المزدوجة، المستديرة منها أو المدببة أو البصلية الشكل.. والشرفات الخارجية ذات الدرابزونات الحديدية المزركشة.. هو نموذج التأثير المناخي المتوسطي..

وهناك كذلك نمط البيوت الأشبه بالقصور، ذات التفصيلات المعمارية الغنية، والزخارف والرسومات على الحيطان والسقوف، وهي نماذج عن الطراز المتأثر بحقبة الحكم العثماني (مثل قصر جاسر في بيت لحم)، أو ذات التفصيلات المستوردة من بلاد ما وراء البحار (أميركا) هاجرت إليها عائلات فلسطينية، والمتمثلة في وجود التماثيل والمنحوتات.

التحدي الأهم في إعداد الكتاب تمثل في البحث عن تاريخ العائلات وملاّك البيوت، ومشقة التمكن من دخولها، وخصوصاً في فلسطين المحتلة سنة ١٩٤٨. فالقلة القليلة من البيوت لا تزال في عهدة أصحابها، وهي في معظمها مقفلة هجرها سكانها الأصليون أو باعوها، أو استولى عليها الوافدون اليهود وتغيّر بعض معالمها أو تشوّه بإضافة مواد حديثة، مثل الأسمنت والألمنيوم. وإذا أمكن دخول تلك البيوت جميعاً وتصويرها بالشكل الذي أظهره الكتاب، فقد تم ذلك بصعوبة بالغة.

لا شك في أن الكتاب نجح بصورة كبيرة في التغلب على هذا التحدي، وأعطى القارئ ما يشوقه إلى المزيد من الأبحاث المماثلة عن التراث المعماري المهدد بالانقراض. كتاب يغني الدارس، أكان متخصصاً بالعمارة أو من محبّيها، ويسلط الضوء على ذاكرة جماعية متجذرة في الأرض الفلسطينية.

نبيل كنفاني

مهندس معمار، بيروت

مجلة الدراسات الفلسطينية، جميع حقوق النشر وإعادة التوزيع محفوظة لمجلة الدراسات الفلسطينية، ولا يمكن نشرها أو توزيعها إلكترونياً إلا بإذن من رئيس تحرير المجلة وذلك عبر الكتابة إلى العنوان البريدي التالي: majallat@palestine-studies.org
يمكن تحميل هذه المقالة أو طبعها للاستخدام الفردي وعند الاستخدام يرجى ذكر المصدر:
http://www.palestine-studies.org/ar/mdf